فلسطين

بقلم كنيث وليامس

نشرت مجلة (الفورتنتلي) الانجليزية في عددها الاخير للسير كينث وليامس الكاتب السياسي المعروف بشؤون الشرق الادنى مقالا عن المسألة الفلسطينية استعرض فيه بعض وجوهها الهامة ، وأدلى فيها برأي جديد . ورأينا أن ننقل الى القراء أهم ما فيه لارتباطه بموضوع الصهيونية الذي عالجناه من قبل .

سياسة الانتداب في فلسطين سياسة غير عملية ، وقد فشلت . وسوف تعاني بريطانيا العظمى منها المتاعب مادامت تسير عليها .

هذا رأي وضعي ، واقعي ، تبؤى معا ، والحقائق أسهل الاشياء إثباتا . وقليل من الانكليز العارفين بالمسألة الفلسطينية يجادلون في هذه النبوءة . وقد جاءت حوادث اكتوبر الماضي مؤيدة لها . بيد أنه لم تقم قرينة حقيقية على ان سياسة الانتداب مذ بدىء بها سنة ١٩٢٠ قد قبلتها أغلبية السكان الفقراء ، بل لقد غص العرب دائما بذلك العهد الذي احتواه الانتداب بالعمل على تسهيل إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين : وليست هناك وسيلة أو ظاهرة من الفوائد المادية التي تزعم الصهيونية أنها تعدقها على فلسطين يمكن ان تحمل العرب على قبوله ، فالعرب لا يريدون الانتداب بكل بساطة .

ولكن الساسة الانكليز لا يؤمنون بهذا ، أو على الاقل يتظاهرون بعدم الايمان به ، ويقولون ان عرب فلسطين أقلية ضعيفة ممزقة ، وليس لها ممثلات عقلية من الوجهة السياسية ومن هم حتى يجرؤوا على مقاومة الانتداب الذي أخذته بريطانيا العظمى على نفسها ، والذي حصلت من أجله على مصادقة عصبة الامم ثم يقولون ان العرب شعب مشاغب : يشغفون بالتظاهر وإرسال الوفود السخيفة الى لندن ، ويقولون أخيراً : نحن نعرفهم جيدا ، فاحكموهم بحزم ، ودعوهم يستفيدون من المذهب اليهودي . والزمن كفيل بانضوائهم الى رأينا .

ولكن ساستنا يخففون من غلوائهم أحياناً ، فقد صرح وزير المستعمرات في ٣١ اكتوبر الماضي بقوله : « أريد أن أتحدث الى الشعب الفلسطيني بجلاء . ان الانتداب يحمل واجباً للعرب واليهود . وسوف تؤدي هذا الواجب تاماً عادلا دون خوف أو تحيز . . . وسوف تضع السياسة البريطانية نصب عينها دائما أن العمل على خير فلسطين كلها » . ولا يستطيع وزير المستعمرات ان يزعم أن في كلماته طرافة ، فهي على صحتها ودقتها خالية من التعمق وبعد النظر . وقد قال مثلها كل وزير للمستعمرات ، ولم تثمر كلها شيئا . ولماذا ؟ لأنك لا تستطيع اليوم أن تخدع العرب بالوعود والتسويف ، فهم يعرفون كل تدليل يمكن أن تقدمه الدولة المنتدبة أو الصهيونية لتأييد التعاون بين العرب واليهود في فلسطين ، أو القول بان قيام الوطن القومي اليهودي في أرضهم فيه خير لهم

وقد تفهم وأن كل سياسي منهم ، أن يلقى كل وزير للمستعمرات كلما وقع اضطراب في فلسطين ، نفس الكلمات القديمة ، أقول لسنا نسيء هذا ، لأن الحقيقة الواضحة هي أن السياسة البريطانية في فلسطين قد أضحت أبدا تتأثر بعوامل الخوف والتحيز ، فكل إنسان يذكر كيف أن الاضطرابات التي وقعت في أرلنده بعد الحرب قد انتهت بعقد المعاهدة الانكليزية الارلندية ، وكيف أن ثورة العرب في الجزيرة (العراق) قد احدثت تغييرا جوهريا في السياسة البريطانية في العراق ، وكيف أن الاضطرابات التي وقعت بمصر بعد الحرب قد انتهت باعلان استقلالها سنة ١٩٢٢ (تصريح فبراير) وهكذا . الواقع ان السياسة البريطانية تقلبت في فلسطين تقلبا ظاهرا ومن الصعب أن نقول أن الادارة العسكرية التي قامت في فلسطين منذ المدنة الى سنة ١٩٢٠ . رحبت بالصهيونيين الذين سمح لهم بدخول فلسطين تطبيقا لعهد بلفور ، فقد كان عطفها على العرب ظاهرا ، ولكن حكومة لندن لم تكن تعنى كثيرا بشأن العرب ، وكانت بالعكس تعنى ليل نهار بأماني الصهيونيين ومقاصدهم . وكان مستر لويد جورج وقت رآسته للوزارة قبل الحرب ، قد عقد الصداقة مع الدكتور ويزمان الزعيم الصهيوني ، فادى ويزمان للحلفاء خدمة جليلة باختراع المفرقعات القوية ، وكانت هذه الصداقة نواة تصريح بلفور وأصله ، حسبما يصرح مستر لويد جورج في مذكراته

ويمضي الكاتب بعد ذلك في الحديث عن الادارة الانكليزية في فلسطين ، فيقول ان عهد السير هربرت صمويل أول مندوب سام كان حسنا ، وانه ترك فلسطين سنة ١٩٢٥ في حالة يسر وان لم ينجح في إقناع العرب بقبول الانتداب . ولم يعن خلفه اللورد بلومر بالمشكلة السياسية ، ولكنه عنى بالعمل على توطيد أركان الأمن والسلامة . وسادت السكينة في عهده حتى انه نصح بتخفيض عدد القوات المحتلة . بيد أن هذه السكينة ترجع الى اغتباط العرب بما آلت اليه الصهيونية يومئذ من الاضطراب ،

وما عانته من أزمات جعلت اليهود يغادرون فلسطين بكثرة . وفى عهد خلفه السير جون تشانسلور وقعت اضطرابات سنة ١٩٢٩ ، فاقتضت تعزيز القوات المحتلة وارسال لجنة برلمانية للتحقيق (لجنة شو) ، ولجنة لبحث مسألة الأراضى والهجرة . وألقت تقارير اللجنتين ضوءاً جديداً على قضية العرب ؛ ونوهت بوجوب إعادة النظر فى طبيعة الانتداب وتوجيه السياسة البريطانية فى فلسطين توجيها واضحا . ولما صدر الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٠ ، شعر العرب أن قضيتهم تسير فى سبيل الفوز .

ثم يقول : ولكن اغتباط العرب بالكتاب الأبيض لم يطل أمده : فقد بذلت الصهيونية جهوداً عظيمة مقرونة بالوعيد لنقض الكتاب الأبيض ، فعاد مستر مكدونالد يفسر الكتاب الأبيض فى خطابه الشهير الى الدكتور ويزمان فى فبراير سنة ١٩٣١ ؛ فكان الخطاب مثلا محزنا جديداً على ضعف الحكومة فى المسألة الفلسطينية . وليس مثل هذا الضعف مما يرضى ، بل ليس عادلا ولا متفقا مع الكرامة . ولن يستتب السلام فى فلسطين إلا إذا أعيد النظر فى مسألة الانتداب ؛ ومن الواجب أن توضع سياسة جديدة على أسس التصريحات الرسمية السابقة فى الموضوع ، وتجرى عليها كل الوزارات البريطانية ، ويجب أن يستشار زعماء الأحزاب البريطانية الثلاثة ، وأن يقنعوا بضرورة إخراج المسألة الفلسطينية من معترك السياسة الحزبية ، والسير فيها على خطة لايحيد أحد عنها . ولا يستطيع سياسى بريطانى أن يزعم أنه قد وضعت بعد قاعدة لسياسة مرضية فى فلسطين ؛ والأمر يقتضى شجاعة أكثر لمواجهة الحقائق ، فزمن المعجزات فى فلسطين قد مضى .

واستمرار السياسة الحاضرة ليس فى صالح اليهود ولا العرب ولا الامبراطورية البريطانية . فانظر اليها من الوجهة اليهودية مثلا : هل يبقى الانتداب الى الأبد ؟ وهل تتصور أن يقنع الصهيونيون الى الأبد بالاعتماد على الحراب البريطانية ؟ لا ريب أن الدولة المنتدبة لم تكسب عرفان الشعب اليهودى بسياستها فى فلسطين

أما معارضة العرب للانتداب فلا حاجة الى ذكرها ، ويزعم البعض أن هذه المعارضة من تدبير أقلية معرضة من « الأفندية » الذين يفقدون نفوذهم السابق بين الفلاحين بسبب ازدياد الرخاء الذى يحدثه الصهيونيون . وهى قصة سخيفة ، لا يؤمن بها غير أولئك الذين لا يعتقدون بقيام أية ثورة شعبية فى أى بلد . وسواء أكان الحكم الذاتى نعمة أم لا ، فلا ريب أن عرب فلسطين قد تطلعوا اليه . ولكن على غير ملائم . ثم إنا نجد الدليل على أن العرب انما يعارضون سياسة الانتداب فى مظاهرات أكتوبر الماضى التى لم توجه الى اليهود كما كان يحدث من قبل ، ولكنها وجهت الى الدولة المنتدبة ذاتها .

واذا لم تتفق الاحزاب البريطانية على اتباع سياسة جديدة فى فلسطين ، فان خير سبيل تسلكه الحكومة البريطانية هو أن تتقدم الى عصبة الامم ، وتقترح عليها ان ترد اليها الانتداب الذى منحته . وهو رأى سيعترض عليه بمنتهى الشدة ، وينعت بالخيانة ، وضياع الهيبة . ولكن العصبة تعرف أن الانتداب (قسم ٢) يراد به السير بالشعوب ذات الشأن الى الاستقلال . واذا لم يكن ثمة ريب فى ان على بريطانيا واجبا ادبيا فى حماية اليهود الذين دخلوا فلسطين ، فان اولئك اليهود لايقيمون اى دليل على انهم يستميلون اهل البلاد ؛ فهل تحمل بريطانيا فى مثل هذه الحالة واجبها الى الابد ؟

واذا القى مثل هذا الاقتراح الى العصبة فهى اما ان ترد بان تطلب الى بريطانيا استئناف الانتداب ، وهنا تستطيع الدولة المنتدبة ان تضع بنفسها شروطا ، واما ان تقبل العصبة نزول بريطانيا عن الانتداب . ولو قبلت العصبة هذا النزول فماذا يكون ؟ هل فى ذلك ما يضير الامبراطورية البريطانية ؟ ان الصهيونيين يتحدثون كثيرا عن اهمية فلسطين للدفاع عن قناة السويس ، ولكن الدفاع عن القناة انما يكون على يد القوى المعسكرة على ضفافها ، ثم يقولون ان ميناء حيفا الذى افتتح منذ اسبوع سيغدو قاعدة عظيمة للاسطول البريطانى . ولكن اين هى القوات البحرية التى يمكن ان تهاجم الاسطول البريطانى فى مياه المديترانيت ؟

والخلاصة ان الحاجة أشد ما تدعو الى انتهاج سياسة عملية حقيقية فى الشرق الأدنى . فقد خرجت العراق من الدائرة الامبراطورية ، وما اتخذ هنالك من الاجراءات لضمان المواصلات الجوية يمكن اتخاذه فى أى مكان آخر ، وسوف تحذو سورية عاجلا أو آجلا حذو العراق . والبلاد العربية فى تقدم ، وهذا التقدم يزيد المسألة الفلسطينية تعقد ، فاذا لم يمكن الاحتفاظ بالانتداب طبق شروطنا المعدلة ، فليس من الحكمة ان نحتفظ به . فلسنا بسياستنا الحاضرة نكسب عرفان اليهود ولكنا نكسب غضب العالم الاسلامى ، والعالم العربى بوجه خاص ؟